كتب

ديوان شعر الخوارج (*)

د. إحسان عباس

مراجعة: فايز ترحيني

أصدر الدكتور إحسان عباس الطبعة الرابعة لكتابه «ديوان شعر الخوارج»، بعد عقدين من الزمن على صدور الطبعة الاولى[1]. وبعد سنوات عديدة على صدور الطبعتين الثانية والثالثة[2].

ضمَّن المؤلف مقدمته تعداداً إحصائياً للمقطعات الشعرية فبلغت (٣٣١) مقطوعة، في حين كان تعدادها في الثالثة والثانية (٢٩٣)، وفي الاولى (٢٢٧) مقطوعة. لكن تلك المقارنة لم يتقصد منها المؤلف «المكاثرة» أو «التمدّح بالجهد المبذول»، بل استدلَّ بواسطتها على «المتابعة والإفادة من المصادر التي لم تكن متوفّرة من قبل، أو الاستدراك لما قد فات النظر سهواً في المصادر التي كانت متيّسرة من قبل[3]. كما أن المؤلف التفت في مقدمته إلى أدوار بعض شعراء الخوارج «كعبيد بين هلال اليشكري» (رقم ٥٥)، و«مليكة الشيبانية» (رقم ١٢٥). في حين ان المقدمات السالفة اقتصرت على دور «عمران بن حطان» (رقم ٨٧)، و«قطري بن الفجاءة» (رقم ٦٠)، فضلاً عن إثارته فيها لأسئلة متعددة تصلح أن تكون أساساً لدراسات مستقلة عن الخوارج، خصوصاً أن أشعارهم كانت نتاج «ايديولوجية» معينة ينبغي للدارس أن يوفيها حقها.

ويكشف المؤلف في مقدمته عن منهجه الذي اتبعه في جمع أشعار الخوارج، فيقول: «إنني أجمع شعر أفراد متعددين ينتمون إلى عقيدة معينة، وهذا الانتماء مرهون في بدايته بزمن محدد، فإن الخروج إنما تمّ بعد التحكيم، فإذا وجد شعر لعمران مثلاً في معركة صفين فهذا لا يقع تحت العنوان الكبير شعر الخوارج، اذ لم يكن هناك خروج في صفين»[4]. ومن خلال هذا المنهج ينطلق المؤلف بالردّ على من ادّعى استدراكاً[5] عليه، ولكني لا أحسبه يدَّعي «الكمال» لنفسه في ما جمع من أشعار الخوارج، خصوصاً أنه استدرك على طبعات كتابه السابقة «١٥٥ بيتاً وثمانية أشطار من الرجز»[6]، ولكن آلمه - كما نظن - أن تجيء الاستدراكات عليه مبنية على أساس غير منطقي أو علمي، يجمع المستدركون فيها أشعاراً لشعراء خوارج قبل أن يأتي «الخروج»، فضلاً عن أنهم لم يعوا

(*) - عباس (احسان) «ديوان الخوارج»، بيروت، دار الشروق، ط ٤، ١٩٨٢ م. يقع الكتاب في ٢٢٣ صفحة.

« دلالة لفظة خارجي » وعياً كاملاً إذ نسبوا للخوارج من لم ينتسب إلى إحدى فرقهم قط.

وبعد المقدمة يسلّط المؤلف الاضواء على شعر الخوارج، فيجد أن روح التقوى المتطرفة هي التي تحركه وتنمّيه، وأن التلازم بين مذهب الخوارج الأدبي وحياتهم العملية هو مدعاة لاقتران الصدقين الفني والاجتماعي فيه.

ويمّاز شعر الخوارج - بنظر المؤلف - بوحدات ثلاث: وحدة الغايات « تمثل النقطة التي تلتقي عندها أحلام كل واحد من أولئك الشراة، وهي الاستشهاد في سبيل الله، أو طلب الموت[٧]. ووحدة الخصائص وهي « مجموعة الصفات السامية التي يمكن أن تقال في كل خارجي صادق العقيدة[٨]، سواء أكان التعبير عنها شعراً أم نثراً. ووحدة التيارات النفسية وهي التي « تتمثل في الاتفاق على معاني التلوم النفسي عند أدنى شعور بالتقصير في جانب الوحدتين السابقتين »[٩]. لكن هذه الوحدات الثلاث وَسَمَتْ شعر الخوارج بسمات بارزة منها: التهافت على آلة الحرب، ومنها بيع الحياة الفانية لشراء الباقية، وهذا ما أوجد التكرار والتشابه في أشعارهم. والكلام على ميزات شعر الخوارج وسماته، يستوجب الكلام على الروح الدينية عندهم، فهذه الروح تتمثل في الحماسة للعقيدة والسعي لتقصير المسافة بين الله والانسان وبذلك يصبح « الموت » البداية الصحيحة للدين الحقيقي، وتصبح « غايته » الأداة الوحيدة للانتصار على الزمن.

ورغم « غاية الموت » تلك فإن المؤلف يلحظ تعلّق الخوارج بالحياة خصوصاً أن بعضهم استباح مجالسة الأمراء الظالمين، وبعضهم تذمّر من التنقل استعداداً لمعركة ما من معاركهم الكثيرة، وبعضهم « قعد » عن الجهاد كما أن بعضهم طابت له المقارنة بين جمالات الحياة ولذائذها وبين القتال، فضلاً عن أن بعضهم ارتدّ عن العقيدة الخارجية ارتداداً نهائياً. ومما يتصل بصدق الخوارج مع أنفسهم ما يسمى « عقدة المهلب » . تلك العقدة التي بثت الرعب والضعف في نفوسهم، فنسب إليهم البعض أشعاراً تردد المؤلف في قبول الكثير منها واعتبرها « ملحمة ازديّة من عمل القصاص... وأن كثيراً من صور الخذلان التي نسبت إلى الخوارج إنما هي مزورة عليهم »[١٠].

وبعد ذلك يلجأ المؤلف إلى إبراز دور « عمران بن حطان » الذي يمّاز عن « قطري بن الفجاءة ». فقطري هذا ارتطم بالذات التي أصبحت محور شعره، يصوّرها ويفتخر بها إن أراد التحدّث عن الحرب أو الموت أو الإقدام. كما يمّاز عن « الطرماح بن حكيم » الذي طلب المال بإلحاح، وشارك في المنازعات القبلية وأسرف بالفخر بنفسه. في حين يمثل « عمران » حقيقة الزاهد الخارجي، لأن النزعة الانسانية في شعره كانت تياراً عميقاً يستدعي الغوص إلى أعماق ذاته لكشف مكنوناتها وأسرارها، لذلك كان « شاعراً متأملاً يجري في شعره بعض الملاحظ النفسية الدقيقة عن حياة الناس وعلاقاتهم، وبهذا العمق في النظرة إلى الحياة والموت وفهم الطبيعة الانسانية قلَّ أن نجد لعمران مثيلاً لا بين شعراء الزهد فحسب بل بين شعراء عصره عامة »[١١]. فضلاً عن أن زوجته « جمرة » كانت بمثابة « النفس » التي يفزع إليها إزاء شعوره بمآسي الحياة، كما كانت ملهماً لآرائه ومعتقداته، وسبيلاً لكشف الصراع النفسي الذي برز واضحاً في شعره.

وبعد أن تكلّم المؤلف على التلازم بين عقيدة الخوارج وأشعارهم، التفت إلى النقد الاجتماعي عندهم. فالخوارج انتقدوا الحرص والجشع وحشد الأموال، وقاوموا بعنف النفاق والتملّق وآلية التبعية إلى الحاكم. كما التفت إلى استحالة الأغراض الشعرية عندهم، فالمدح استحال إلى ثناء « للشراة » أنفسهم، واقتصر الرثاء على الاخوان والاصدقاء فقط، وأصبح الهجاء نقداً لروح التخاذل أو الارتداد عن العقيدة الخارجية، والأغراض الأخرى من غزل وفخر وغيرهما كانت موجهة بمبادئهم السامية ورغبتهم في الاستشهاد.

بعد هذه الأضواء التي سلطها المؤلف على شعر الخوارج، انتقل الى مرحلة « الجمع والتحقيق »، فأثبت أشعار الخوارج أيام « علي بن أبي طالب » فجمع لـ (١٢ شاعراً قرضوا (٢٠) مقطوعة شعرية ورجزية حوَت (٦٧

بيتاً من الشعر والرجز؛ ثم أثبت شعر الخوارج «أيام معاوية وابنه يزيد حتى ولاية عبدالملك»، جامعاً لـ (٣٨) شاعراً قرضوا (٥٦) مقطوعة حوَت (١٨٠) بيتاً من الشعر والرجز، وفي المرحلة الثالثة جمع أشعار الخوارج زمن «عبـــد الملـــك بن مروان» ذاكراً (٤٣) شاعراً قرضوا (١٦٦) مقطوعة حوَت (٦٨٨) بيتاً من الشعر والرجز، وفي المرحلة الرابعة جمع أشعارهم بعد «عبد الملك حتى أواخر الــدولــة الاموية» معـــدداً (٥٣) شاعراً قرضوا (٨٩) مقطوعـــة حوَت (٤٢٠) بيتـــاً من الشعر والرجز. وهكذا فإن المؤلف عدّد (١٥٠) شاعراً خارجياً قرضوا (٣٣١) مقطوعة حوَت (١٣٥٥) بيتاً من الشعر والرجز.

وأخيراً استدرك المؤلف ليذكر أبياتاً من الشعر عثر عليها في مصادر لم يتسنَّ له الاطلاع عليها في أيٍّ من طبعات كتابه السابقة كالمقطوعة (٢٣٢) (ص ٢٦٥). أو ليضيف أبياتاً نسبت لمن حقق لبعضهم من قبل كالمقطوعة (٨٤) (ص ٢٦٦). كما أن المؤلف جعل لكتابه ملحقاً خصّصه لمن لم يستدل استدلالاً واضحاً على «خارجيتهم» كالأعرج المعني الذي أثبت له المؤلف (٤٠) بيتاً من الشعر بعد أن قال فيه: «يبدو أن الأعرج ليس من شعراء الخوارج... وان قال التبريزي فيه أنه أحد الخوارج، ولهـذا جعلنـا مـا عـثرنـا عليـه من شعره في ملحـق منفرد»[١٢]. وكمحارب بن دثار[١٣] الذي أثبت له (١٤) بيتاً من الشعر بعد أن قال فيه: «ولكن يبدو أن محارباً لم يكن خارجياً.. وكان من المرجئة الأولى الذين يرجئون علياً وعثمان ولا يشهدون فيهما بشيء»[١٤].

وبعد الملحق أثبت المؤلف فهارس أربعة، رتّب في أولها شعراء الخوارج الذين وردت أسماؤهم في كتابه ترتيباً ألفبائياً، ثم أشار فيـه إلى أرقام القصائـد والصفحات. وجعل ثانيها لقوافي الشعر بعد أن رتبها ترتيباً ألفبائياً أيضاً، فضلاً عن أنه أشار فيه إلى الأوزان واسم الشاعر ورقم الصفحات. وخصّص ثالثها للأراجيز مرتبة ترتيباً ألفبائياً كذلك مشيراً إلى الراجز ورقم الصفحة. وأمّا الرابع فهو فهرس الأعلام والأماكن والطوائف، وهذا انتهج فيه أيضاً الترتيب الألفبائي.

وبعد، لا بدّ من التنويه بالدقة التي اتّبعها المحقق إبان عمله الدؤوب، إذ إنه أشار إلى أماكن تواجد الأبيات الشعرية والمقطعات والأراجيز. فضلاً عن أنه أشار إلى اختلاف الروايات الكثيرة. كما أن دقته تبدو واضحة في إشارته إلى اختلاف الرواة حول اسم شاعر ما من شعراء الخوارج، فضلاً عن أنه لا يعدم جهداً في عدم القطع بخارجية شاعر أو شاعرة[١٥]، وفي إعادة ترتيب أبيات المقطوعـة الشعريـة الواحـدة[١٦]. ولكن رغم ذلـك يحـار القارىء في المنهج الذي اتبعه المؤلف في تعداد شعرائه ضمن «القسم» الواحد، كما يحار في المنهج الذي اتبعه في تدرّج الأبيات الشعرية والمقطعات للشاعر الواحد. إذ إنه لم يتبع الترتيب الالفبائي، ولم يتبع الترتيب الزمني كونه لم يشر إلى تاريخ وفاة الشعراء، فضلاً عن أنه أثبت شعراً لشعراء خوارج مجهولين مما يستحيل معه اتباع الترتيب الزمني. كما لم يتبع الترتيب «الفكري» بتقسيم أشعار الخوارج إلى خطوط فكرية تتدرّج لتشكل بالتالي وحدة منطقية متكاملة. ولكن تلك الحيرة التي تتملّك القارىء طيلة رحلته مع شعراء الخوارج، قد تغفرها للمؤلف الجدّة الواضحة والدقة المتناهية والاهمية البالغة التي يقدمها الكتاب لمن أراد الاطلاع على الحركة الفكرية في شعر الخوارج.

الحواشي

(١) صدرت الطبعة الأولى عن دار الثقافة سنة ١٩٦٣ م.

(٢) صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ م. أما الطبعة الثالثة فلم أستطع تحديد تاريخ صدورها. خصوصاً أن المؤلف لم يثبت مقدمتها في الطبعة

الرابعة كما فعل مع مقدمات الطبعتين الأولى والثانية.

(٣) عباس (احسان). ديوان شعر الخوارج. ط ٤. ص ٥.

(٤) المرجع نفسه. ص ٧

(٥) الاسعد (عمر). «في شعر الخوارج» مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. ص ٧٧. م ٥٢. ج ٤. ص ٨٣٣ ـ ٨٦٦.

(٦) عباس (احسان). «ديوان شعر الخوارج». ص ٥.

(٧) المرجع نفسه. ص. ٢.

(٨) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(٩) المرجع نفسه. ص ٢٢.

(١٠) المرجع نفسه. ص ٢٧.

(١١) المرجع نفسه. ص ٣٤.

(١٢) المرجع نفسه. ص ٢١٧.

(١٣) سبق للمؤلف أن ذكر هذا الشاعر في متن كتابه تحت رقم الشاعر ٩٩، رقم المقطوعة ٢٤٦، صفحة ٢٠٩.

(١٤) عباس (احسان). «ديوان شعر الخوارج». ص ٢٧٦.

(١٥) المرجع نفسه. هامش صفحة ٨٧.

(١٦) المرجع نفسه. هامش صفحة ٤٦.